

فشل النخب العربية في تكوين الأحزاب السياسية الكبيرة



الديمقراطية التمثيلية اقتضت وجود الأحزاب السياسية التي تبنيها نخب سياسية واقتصادية على أساس فكري سياسي أو على أساس اقتصادي طبقي. قلد العرب الديمقراطية التمثيلية ولم يخترعوها ولكنهم لم يفلحوا في بناء الأحزاب السياسية التي تحمل مشاريع وتخوض بها معارك الانتخاب وتحكم أو تعارض.

التجربة الحزبية العربية مشوهة والثورة العربية لم تفلح بعد في تحرير النخب من أمراض فشلها الذاتي لترتقي إلى مرحلة تكوين الأحزاب الكبيرة والمعمرة حاملة المشاريع.

المشهد التونسي هذه الأيام على أبواب الانتخابات الرئاسية السابقة لأوانها وعلى عتبات انتخابات تشريعية في موعدها يكشف هشاشة البنيان الحزبي بل فراغ الساحة من كيانات تعبر عن مطامح فئات واسعة وهو تشوه ديمقراطي سترك أثرًا سيئًا على التجربة.

تجربة الحزب الواحد الحاكم أعاققت التطور الطبيعي للديمقراطية التمثيلية

ما من قطر عربي لم يعيش تجربة الحزب الواحد الحاكم بأمره بدءًا من الأنظمة العسكرية في الشرق (أحزاب البعث العربي الاشتراكي العراق وسوريا، الاتحاد الاشتراكي/مصر، اللجان الشعبية /ليبيا القذافي) إلى الأنظمة شبه المدنية مثل تونس (الحزب الاشتراكي الدستوري/ حزب التجمع/بن علي والمغرب (أحزاب المخزن) والجزائر (حزب جبهة التحرير).

بعد الثورة ظل هذا التشوه السياسي فاعلاً في النفوس ولكن تبين أنه طبع حتى معارضيهِ المعلنين وجعل منهم نماذجًا للزعيم الذي كانوا يعارضونه ولأسلوب عمله السياسي الذي كان يعذبهم ويرفضونه ويقترحون الديمقراطية والتعددية بديلاً عنه

النموذج الموحد والأوحد هو حزب بينيه الزعيم القائد حول شخصه وفكره الأوحد ويحوّله إلى أداة حكم ورقابة شعبية ويجعل منه الطريق الوحيد لنيل مغنم سياسية ومادية على قاعدة الولاء قبل العطاء ثم العطاء مقابل الولاء ثم العطاء على قدر الولاء حتى يتحول الشعب كله إلى ماكينة صامتة تخاف من ظلها، إذ يصير الحزب رقيبًا على الأنفاس يحصيها، وقد وصل الأمر في تونس بن علي أن أجهزة الأمن النظامية تخاف من الجهاز الحزبي الذي يهددها في رزقها إذا لم تتحول إلى عصا في يد المسؤول الحزبي المحلي الصغير قبل الكبير.

لقد كانت أحزاب أسوأ من الأحزاب الفاشية مطابقة بإطلاق لنموذج رواية 1984 كما خطها أوروبيل، فبعد الثورة ظل هذا التشوه السياسي فاعلاً في النفوس ولكن تبين أنه طبع حتى معارضيه المعلنين وجعل منهم نماذجاً للزعيم الذي كانوا يعارضونه ولأسلوب عمله السياسي الذي كان يعذبهم ويرفضونه ويقترحون الديمقراطية والتعددية بديلاً عنه، وتونس تقدم نموذجاً مدرسياً لمتابعة حالة المعارضين الذين تحولوا إلى نسخ من غريمهم وقامعهم.

الجماعات الإسلامية هي الوحيدة التي أفلحت في التنظيم والتماسك

أمامي حالة الإخوان المسلمين في مصر وحركة النهضة في تونس وبدرجة أقل إخوان سوريا والجماعة الإسلامية بالمغرب، فالغالب في الجماعات الإسلامية أنها بنت تنظيمات قوية بل حديدية وتعرضت أكثر من غيرها للقمع والتشريد والمطاردة ولكنها كانت دوماً تخرج متماسكة، فقد تعرضت أحزاب يسارية قبلها إلى ما تعرضت له ولم تفجح في استعادة كياناتها السياسية وتحولت إلى ذرات هائمة (مثقفون مستقلون يتحولون إلى بوليس للنظام الذي كان يقمعهم بمقابل مادي على شكل امتيازات وهي الحالة الغالبة على اليسار التونسي).

نموذج نجيب الشابي نموذج مدرسي فعلاً ويلحق به بقية طيف اليسار وربما نجد مثيلاً له في الحزب الشيوعي المصري والتنظيمات الناصرية، أما حزب البعث العراقي فلم يمنحه العدوان الأمريكي أي ذرة عقائدية ليعيد التماسك حتى من موقع المقاومة كما كان يزعم

لماذا يفجح الإسلاميون في التنظيم؟ بعض هذا التماسك يعود إلى القمع والتعذيب وبعضه يعود إلى العقيدة الدينية التي تبني الانضباط التنظيمي فيتربى الفرد في الجماعات الإسلامية على الربط بين طاعة الله وطاعة الجماعة فيتحول العمل الجماعي إلى عقيدة وعبادة، ولكن الحالة التونسية تعطي احتمالاً مختلفاً، فقد شرع الحزب في التحول من حزب عقائدي إلى حزب سياسي مدني وكان من المتوقع أن يخف الرابط العقائدي لصالح التنوع السياسي الداخلي وهو معطي حقيقي داخل حزب النهضة (وظهر في صراعات المؤتمر العاشر 2016) إلا أن ما نراه الآن يثبت أن الحزب مستمر في بناء قوته الخاصة داخل إطار مدني، وقد تعرض إلى أزمات وأفلاح في الخروج منها متماسكاً وآخراً أزمة الترشيح للبرلمان ولرئاسة الجمهورية التي انتظر الجميع أن تعصف به فزادته قوة، وعلى خلاف ذلك نرى نهاية الأحزاب المدنية.

بقي الزعيم وحده بالمقر

نموذج نجيب الشابي نموذج مدرسي فعلاً ويلحق به بقية طيف اليسار وربما نجد مثيلاً له في الحزب الشيوعي المصري والتنظيمات الناصرية، أما حزب البعث العراقي فلم يمنحه العدوان الأمريكي أي ذرة عقائدية ليعيد التماسك حتى من موقع المقاومة كما كان يزعم، ومثله حزب جبهة التحرير الجزائرية الذي يتلاشي الآن تحت ضربات الشارع الثائر.

لم تقم هذه الأحزاب على رابط عقائدي وإن زعمت أنها من حررت الأوطان من الاستعمار، ولكن تبين للجمهور المغلوب على أمره أن هذا التحرير هو عملية استبدال مستعمر أجنبي بمستعمر محلي أشد

وأنتى، فسكتت الأغلبية وتميزت فئات الانتهازيين ولقطاء السياسية واستولت على نظام الولاء والعهاء ولذلك سقطت كل أخلاقيات الحزب المحرر والبانى، وأنصع الأمثلة على ذلك انقلاب حزب الدستور التونسى على زعيمه بورقبيبة وتحوله فى ليلة وضحاها إلى حزب التجمع الذى يعلن بورقبيبة.

بين المواعيد الانتخابية لم يشتغل أى زعيم من هؤلاء على بناء حزبه وعلى مناقشة الشارع لتطوير أطروحاته السياسية وتعديل بوصلته على لحظة التطور الديمقراطى التى يمر بها بلد مثل تونس ما زال أكثر من نصف سكانه شبابًا منفتحًا على عالم يتطور بسرعة الضوء

لكن السؤال المحير أن من كان يعارض هذه النماذج قلدها بعد الثورة وحصر الذكاء والقوة والقيادة فى شخصه وحول جمهوره إلى قطيع يصوت له أو يصمت، بل يذهب إلى حد انتظار المواعيد الانتخابية ليخرج إلى جمهوره أن امنحوني أصواتكم لأحكمكم فأنا الذى أملك الحقيقة وأنتم قضيي، فلم يعبر عن شوق اجتماعى (طبقى وإن كان يعلن يسارته) ولم ينتم ولم يتضح موقعه، فكل الجمهور على اختلاف مستوياته مرحب، فالمهم الصوت فى الصندوق ولو اجتمع له البرجوازي مالك المؤسسة وبواب المشغل الفقير كما اجتمعوا للزعيم بورقبيبة ولناصر ولصدام.

بين المواعيد الانتخابية لم يشتغل أى زعيم من هؤلاء على بناء حزبه وعلى مناقشة الشارع لتطوير أطروحاته السياسية وتعديل بوصلته على لحظة التطور الديمقراطى التى يمر بها بلد مثل تونس ما زال أكثر من نصف سكانه شبابًا منفتحًا على عالم يتطور بسرعة الضوء. وهأ هو الموعد الانتخابى يحل ولا يجد شخصًا مثل نجيب الشابى عددًا من المواطنين ليزكيه للترشح بعد أن كان زعيم المعارضة التونسية وأعلى الأصوات المطالبة بالتعددية والحريات وإنهاء عهد الزعيم الملهم، فإذا هو نسخة بائسة من هذا الزعيم وقد انتهى إلى النسيان مثله.

يولد الأمل من قلب الفشل وتلك سنن

لا يكفى القول إن الأحزاب الحاكمة شوهت معارضيتها فكرًا وروحًا، فهذا تبرير لكسل النخب التى تبحث عن شماعا، فالأقرب إلى الصواب فى رأيى أن هذه الزعاما والمعارضات العلمانية ليست أكثر من طلاب سلطة لأشخاصها وما معارضتها للسلطة الحاكمة إلا سبيل لذلك ولذلك عندما نستعيد سيرة الكثير منها نجد أنها قفزت فجأة من أقصى مواقع المعارضة إلى قلب السلطة بمجرد أن فتح لها النظام فجوة صغيرة فى جدار الصد، ومرة أخرى فى تونس نجد نماذج مدرسية، فوزراء بن علي كلهم كانوا تربية اليسار وقيادته فى السبعينيات وبهم حكم وأطمأن فقد متعهم بالسلطة وكان ذاك هو مطلبهم الحقيقى.

بعد الثورة (الحالة التونسية) بدأ البحث عن سبل جديدة وزعاما جديّة متحررة كليًا من هذا الفشل، وما زلت هناك كيانات جنينية لم تمر إلى الاختيار الميدانى ولكن المشهد بدأ يتغير

بعد الثورة فهم الناس طبيعة هؤلاء الزعماء وأحزابهم ذات الأسماء الرنانة وتخلوا عنهم باحتقار لم يخرجهم من السياسة فقط بل أخرجهم من التاريخ إلا فى شكل نموذج للفشل، فشل يمتد من المغرب إلى اليمن.

بعد الثورة (الحالة التونسية) بدأ البحث عن سبل جديدة وزعاما جديّة متحررة كليًا من هذا الفشل، وما زلت هناك كيانات جنينية لم تمر إلى الاختيار الميدانى ولكن المشهد بدأ يتغير والتنظيمات تتطور متخذة تقنيات التواصل الحديثة سبيلًا.

بعد انتخابات 2019 سنكتب أنها الانتخابات التى نظفت الساحة من الزعاما المنتهية الصلاحية وأعدتها لنماذج تفكير وتخطيط وحكم على قواعد تتلاءم مع القرن ال21 وسنعود بالحديث إلى أهم النماذج حتى الآن وهى حركة الأمل.

رابط المقال: <https://www.noonpost.com/28961/>